تحية طيبة وبعد،

أستاذي الفاضل الدكتور عبد الرحمن تبرماسين، أرجو أن تكون قراءتك للحوار فرصة لضبط أي خطأ مطبعي أو لغوي فيه، ذلك أنه فاتني إنعام النظر ملياً فيه لهذه الغاية، غاية إرساله إليك بالسرعة الممكنة، وأشكر تمام الشكر إحاطتك الكريمة لي بهذه اللفتة الرائعة، والباعثة على التواصل، وإذ أعلم أن مشروع حضورك للأردن قائم، فأتمنى أن يكون ذلك لإحضار عائلتك الكريمة معك، والإقامة عندي في بيتكم الصغير بأهله ، الكبير بكم، في أي وقت تشاء، وهذا سِبر بيتٍ مشرّعة أبوابه، حدّ تجلي القول فيه أنه لا يكون لمن يأتي إلى الأردن إلاّ يقيم أويدخل بيت نادر هدى، أرجو تلبية الدعوة، ومنحي فرصة التكريم لك ولعائلتك الكريمة.
إنني أعتقد أن هذه المقابلة ستكون مادة خصبة للدارسين والباحثين في تجربتي الشعرية، وأنها، وانت مجريها ستكون مدعاة خصبة لك لقراءة تجربتي بعمق، وبعث السؤال فيها، سبيلاً لإضاءة هذه التجربة، وإثراءً للمشهد الإبداعي على مستوى الوطن والأمة، وأني لأبدي استعدادي وآمالي في أن نتعمق معاً في مثل هذه الحوارات، فتصبح مادة لكتاب كامل متكامل، يأخذ منهجاً إبداعياً مستجداً، وحينها أبدي استعدادي التام لنشره لك عن أي دار رائدة للنشر، مدعوما من وزارة الثقافة الأردنية، أو أمانة العاصمة، إن الحافز وراء هذا الاستعداد وهذه الامنية هو عمق أسئلتك القلقة المقلقة، النامة عن تبحر وتبصر وخبرةٍ ودراية، تجعلني أمامها-وقد قولتني مالم تستطيع مقابلة أخرى تقويلي-أصر على التفكير في هذا المشروع مليّاً، وعمل ما يلزم من مقابلات أخرى بعد أن تكون وصلتك كافة أعمالي الشعرية-ان شاء الله-

تحياتي اليك ولعائلتك الكريمة، وللجزائر العظيم

اربد – الأردن
ص.ب 552 الرمز البريدي 21110
2006/8/13

واسلم لأخيك
نادر هدى

حوار مع الشاعر نادر هُدى

أجرى الحوار أ.د عبد الرحمن تبرماسين
أستاذ مادة الأدب الحديث وإيقاع الشعر العربي
جامعة محمد خيضر – بسكرة – الجزائر

على هامش مؤتمر "تحولات الخطاب النقدي العربي المعاصر" بقسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة اليرموك، إربد، المملكة الأردنية الهاشمية، حيث دارت فعاليات هذا المؤتمر في اليومين الأولين وفي اليوم التالي نقل نشاطه إلى قسم اللغة العربية بجامعة "البتراء" بعمان، حينها التقيت بالشاعر المحامي الأردني "نادر هدى" الذي مكنني من العدد 131 من مجلة "عمان" الذي لم يصلني هذه المرة، وكان الحديث حول الشعر والشاعر وهموم الكتابة والإبداع وهاجس الحرية وقلق النفس، ومختلف القضايا التي تؤرق المبدعين وكان لبنان هو حديث الناس كما كان العراق، وكان السؤال هو الوجع الأكبر؟

*** من بيروت تبدأ الأسئلة المحرقة، فلتكشف لي ما فعلته بك هذه المحرقات؟**
بداءة اسمح لي أن اشكرك أستاذ عبد الرحمن إذ تخصني بهذه المقابلة، ومن خلال هذا المنبر الذي أعتز به وأفخر في بلدي وأعتبره منارة وجامعة لأمة العرب في صوغ وجدانها الإبداعي والثقافي وأجيب: إن بيروت كانت ولم تزل المختبر الثقافي والسياسي لكل تشكيل في خارطة هذا الوطن، والأثر البالغ في صياغة كل مشروع عربي، إنها بيروت أمّ الشرائع وبنت القيم منذ عهد جوستنيان وحتى اسطورة المجد الذي نشهده الآن ممثلة بالمقاومة الإسلامية.. الجدار الأخير في شرف الأمة وقد كبا من كبا، وولى دبره من ولى غير متحرف لقتال او متحيز الى فئة.
لقد أقمت في بيروت منذ 1980/1/1 وحتى 1985/11/5، خلال هذه الفترة شهدتُ الحرب الأهلية اللبنانية بكل تفاصيلها وطقوسها، وشهدت الإجتياح الإسرائيلي للبنان سنة 1982، ودخول القوات الإسرائيلية لبيروت، وشهدتُ مجازر العصر أو قل مجازر التاريخ في صبرا وشاتيلا، ولم أكن عابر سبيل، كنت ابن ذاتي: الإرث والتاريخ، وابن واقعي المبدع والإنسان، رأيت ما رأيت، وعايشت ما أن لو ألقي على الجبال لهاضت، في حين لم يكن يعني ما يحدث في بيروت للكثير من أمة العرب أكثر من أحداث تروى، يتابعها كما يتابع المونديال. عرفت الحرب وعشت أهوالها، عشت حالات تفاصيلها

وخرائط الواقع الذي يتشكل من خلالها، خرائط تتحرك في الدقائق والساعات والأيام بعيدا عن لغة الزمن، وأرخت ذلك في قصائدي "حصار" "وبعض ما قيل" "وحالات للفتى والتيه" المنشورة في ديواني "عالم لست فيه"، عرفت في حصار بيروت كيف تتحرك المبادئ بلا مقدمات أو مقدسات، وكيف تنتهك القيم والمرتكزات، وعرفت أنه ما لم تكن ابن ذاتك فان الآخر لم يعطك ذاته، ذاتك بكل المفاهيم الإجتماعية والطبيعية ولغة العلم والجرح الذي لن يداوى إلا بدوائك، ولن يشرح الا بمبغضك، ولا زلنا حتى هذا الوقت – للأسف – نعيش هذه المعادلة غير المتكافئة، ما بين لغة العواطف ولغة العلم، "ما بين ابتهالات جدي ومذاهب مالتوس، وقد خطّت خطاها المركبات، في حين لم نزل لغة أرقام متصارعة في المنافي البعيدة، والإتجاهات الخطأ، نؤله كل مأثوم مدعى وندعوه هُبل، لوجاء ما بعد الحداثة في العولمة والكيمياء".

أعرف أن اللغة تخونني في زمن السقف العربي الهابط من حرمة القول والفعل والرأي، وتسائلني يا أخي عبد الرحمن ما فعلت بك هذه المحرقات؟! أستطيع أن أكون محتالا في القصيدة فاطلق فضاءات الكلمة على أعنّتها، ولكني في لحظة مصارحة مع الذات، والذات أناي، وطني، وامتي، أراني عييّا، فأنا بحاجة ماسة أحيانا لأقول للأعور أعور لا كريم العين، وأحيانا أراني أمام قهر يكتّم الأنفاس، لأنني أمام حقيقيٍّ في غربة، أفقد التواصل فيها مع الآخر في زمن الركوع والهرولة والنفط المحترق، أراني معنياً بأن أكون صادقاً، متماهيا، فالدّم لا يصير ماء.

يقول الشاعر الجزائري عز الدين ميهوبي:

كانت فلسطين والجولان كان هنا ومصر كانت وكان الأرزلبنانا
كنا وكانوا وكانت كلنا كلم وكان يعبربه–الاعراب–نقصانا

ماذا يقول نادر هُدى؟

إن الجغرافيا لا تهزم، وحركة التاريخ في آنها ليست عنوان الحقيقة فيما يشكله راهنها، انها وحركة دوال الزمن المتعانق في مسيرته ضمن معادلتي الثابت والمتغير، حقيقة طبيعية وتناسبيه. إن الحضارة كمصطلح ومفهوم قائم منذ قيام الخليفة وهذا هو الثابت، اما في ملعب من تكون الكرة فهذا هو المتحرك، وقد كان لنا دوراً في ذلك، ساد ثم باد، ليس هذا هو المهم، المهم إلا تخلي مكانك للآخر فتصبح صدى ومتلقي للآخر تذوب فيه دون اعتبار واحتواء لشخصيتك، شخصيتك المؤثثة في نسغها الجيني على مستوى المبدأ.

الجغرافيا لا تهزم، والتاريخ أيضاً لا يهزم، ذلك أنه المعين والباعث والمعزّز–فيما نحن فيه خاصة بين الأمم، إنه القرآن والمنهج، الحلقة التي تزداد ثراء حتى في أظلم مراحل الإنكفاء والإنحدار والنكران، وهذا مكمن السرّ في أمة أعزها الله بالقرآن إذ نزل بضادها، واستوى بلسانها، لقد فتحت البلاد وأدانت الأمم لراية هذا الدين، فخالد وصلاح الدين لم يموتا، إنهما احياء في امة مولّدة، من نسلهما حسن نصر الله، وبين مد وجزر انكفأت الفتوحات، واحتلَ ما احتل منها، وحرر. المهم إن العصب ما زال حياً، وسيبقى ضمن معادلة حركية التاريخ وعلميَّته.

الجغرافيا لا تهزم، ففلسطين ستبقى فلسطين وكذلك الإسكندرون، وسبته ومليله، وجزر موسى، ولو بعد حين، إن القسطنطينية لم تفتح إلا بعد مئات المحاولات الجهادية على مدى ثمانماية وخمسون عاماً، لتصبح عاصمة الخلافة العربية، وتبقى كما هي الآن، ومهما تقادم الزمن، قلعة إسلامية حصينة، إن التاريخ لا يقاس بما يشكل من الايدلوجيات بل يقاس بالثابت الذي يشمل نسغه العصبيّ والحركيّ والحسّي.

*** خلعت القبيلة ولبست درع التمرد، وتخليت عن اسم العشيرة "قواسمة" وأبدلته بـ "هُدى" ألأنك تهدي العصاة والضالين، أم أنك تعيد الهوية للأمومة من جديد؟**

أنا شاعر متمرد، السقوف لا تحد تمردي، وتمردي لا يؤمن بالسقوف والمفاهيم المعلبة الجاهزة، لذا فأنا أحقق ذاتي بالصور التي تتوق اليها، بعيدا عن أسّطرَة الخرافة، ودواثر الآثار، لقد ذهب السلاطنة والملوك والأباطرة والتجار والمقامرون، وبقي الشعراء والفنانون والحكماء يصوغون، الحضارة والإنسان والمعنى، هل لنا أن نعرف "كافور" لو لم يصادف زمانه زمانا كان فيه المتنبي، أبدلت اسم القبيلة "بهدى" لأن هدى ذاتي، هدى المطلق في البعد والزمن، في الرؤية والإيقاع بعيداً عن رتابه المقدس المسبوك بالمفاهيم التي قد لا يجمعك فيها الا الخواء والعبث، إن اسمي هو خلقي تماما كقصيدتي، وأنت لا تستطيع ان تكون لبنة فاعلة في واقعك ما لم تكن مسكونا بالتمرد، والتجاوز لما هو سائد، بذلك تكون راية للهداة، وسيفا على الضالين والمنحرفين والعصاة، إن الشاعر معنيٌّ بصوغ الضمير الجمعي للأمة، ذلك أنه الوثيقة الحية لها، ومدونات التاريخ الحقيقية لن تكون كذلك مالم يكن الإبداع مادتها ومرجعيتها ومختبرها الذي لا ينضب.

*** أنت شاعر شقي؟**

نعم أنا شاعر شقي، شقي بتمردي، شقي بحلمي، شقي بواقع لا يمكن أن أقبله كما هو بعيداً عن الأسئلة الجوهرية في الوجود والحياة، وصولا إلى المثال الذي أريد من قصيدتي التي تحمل رؤاي في هذا العالم الذي يخلص المنطق فيه إلى اللامنطق، معنىٌ بترتيب الحلم على شكل يرقى بالإنسان إلى إنسانيته، معنىّ بتشكيل اللغة الى توحِّد المشاعر المتلاقحة في الحس والهدف المُعبّر عن حقيقة الإنسان، إن اللغة هي الوطن الإنساني والمعنى الجوهري لمرتكزات ما يوحد على هذا الكوكب، ليكون حارة حميمية مؤثثة بمعنى الوجود من المهد الى اللحد، .. نعم أنا شقي عندما أرى اهتزاز القيم وسوء الخلق يتجلى في زمن آل فيه الكثير إلى السقوط أوالإنحناء تحت مسميات الحقوق والحريات، العولمة والخوصصة وتأويل الغايات، شقيٌ عندما أرى السجون قلاعا بعيداً عن كفالة الضمانات، لمن يركب دبابة ويتقمص وطناً ظاناً أنه الحاكم بأمره في مفهوم نظرية الحق الالهي، ظل الله على الأرض، ويجعل منه أعداء الأمة والوطن المنقذ والملهم والمخلص الذي لم تأت بمثله الأوائل، وتكتّم الأنفاس، وتنتهك الحريات برعاية الدبابة الجاهزة لسحق كل من يقول: لا او يعارض، لا شيء، إلا لأن ما تشاءه هذه الدبابة هو مشيئة الأقدار.
إن شقائي هو أسئلتي وقصيدتي به ملأى.

*** فما معنى أن يسيطر الحس المأساوي على قصائدك وخاصة ديوان "حبر العتمة"؟**

قبل الإجابة على سؤالك موضوعاً، دعني أقول أن ديوان "حبر العتمة" الصادر في سنة 1992 في الأردن هو الديوان الاول في قصيدة النثر في هذا البلد، والذي حمل الريادة الميدانية بعد أن كنت قد أصدرت "مملكة الجنون والسفر" 1984، "ومسرات حجرية" 1985 آن تواحدي في بيروت التي شكلتني وعمدتني، لقد صدر الديوان دون إجازة من دائرة المطبوعات والنشر، لأنه كان ينظر الى هذا النوع من القول "نظرة العاقل من السفيه،" فلا ضير إذاً أن يكون ديواناً اشكاليا، عبّر عن قصيدة النثر في أوج تجلياتها، وأنا من جيل بعثها الثاني على المستوى العربي من خلال ما كانت تشهده الساحة اللبنانية الباعثة لهذه القصيدة.

عندما صدر الديوان في الاردن قيل ما قيل فيه، وأعتقد أن قلة من المجموعات الشعرية العربية حضيت بما حضيَ فيه هذا الديوان ممثلاً فيما كتب عنه في الأردن وخارجه، ما أن يمكن اختصاره بالقول "ويصبح حبر العتمة" قِدراً لكل شاكر فضل او ملقى حجر" وقد قيض لي إجراء العشرات من المقابلات الصحفية لسنوات من صدوره كتداع لهذا الصدور، والإشكالية التي كانت تثار، فقد كنت في جانب أختصر القول: بأن قصيدة النثر هي قصيدة المستقبل، وذلك حقيقة القول لرئيسة القسم الثقافي والمسؤولة عن ملحق الراي الثقافي في ذات رصد لمسيرة قصيدة النثر "فعندما كتب نادر هدى قصيدة النثر بدا ذلك غريبا، لكنه استطاع أن يجر وراءه جيلا من المغرمين بهذا النوع من التعبير" وقول الكثيرين مما يختصر بالقول "شاعر ريادي قاتل من أجل ترسيخ قصيدة النثر ميدانيا على أرض الواقع" ويبقى ديوان "حبر العتمة" على المستوى العربي علامة بارزة في مسيرة قصيدة النثر، ويدل على ذلك الكتابات والدراسات التي كان ميدانا لها منذ صدوره وحتى الآن، أقول ذلك ويخجلني التواضع، ولعل المعني والمتابع ينالك باليقين.

أعود إلى موضوع السؤال فأقول: "ان كتابة "حبر العتمة" مكانياً كان في بيروت معظمه، وفي بلدي الأردن بعضه الآخر، وبيروت التي عشت وشهدت كانت بيروت الحرب الأهلية والأشباح والدمار وانكفاء الأمة في مشروعها الحضاري، وقنوط المواطن العربي من كل أمل في الخلاص من تداعيات حرب وعدو لا يُقهر، يستبيح الضرع والزرع وأمل الوجود في أدنى إنسانية ممكنة، كذلك كنت في جو تكتم الأنفاس حيث كنت ممنوعا من دخول بلدي، وأعاني الخطف والضيم ووارد القتل في كل لحظة، في بلد لم يعد للمقدس فيه مكان، كُتِبَ أيضا في وقت كان ناب الجوع والجهل والتجهيل يفتك جامحا على المستوى الشعبي العربي، حيث كانت مسؤولية الدولة شمولية بعيداً عن روح المبادرة والانطلاق، إن على مستوى الرأي أو الإنتاج، أيضا كُتبَ بروح متمردة ساخطة على كل ما هو موجود وكائن، لا ترى في الأفق أملاً، هل تتصور مثلاً لحظات خروج المقاومة من بيروت، وتتويج رئيس جمهورية عربي من على دبابة إسرائيلية بعد دخول الجيش الاسرائيلي لبيروت، وإقدامه مع أبناء الوطن على مذابح صبرا وشاتيلا، هل تتصور مثلا أن المواطن العربي لكونه تلميذا خارج الحدود يزجّ في ظلمات السجون بلا سؤال ولا سائل، هذا المكان وهذا المعنى الممعن في السؤال صاغه "حبر العتمة" شعراً فقال قائلهم "أنه حالنا، أحوالنا، مآسينا" "هذا الشعر فيه الكثير من الصمت والحزن والخراب والإنتظار والبوح العذب" ومثل ذلك كثير.

أما قولك "وخاصة" في متن السؤال، فلدي على ذلك كثير من التحفظ، ذلك أن ما في "حبر العتمة" من همٍّ وحلم ورؤيا ينسرب على كافة دواويني وقصائدي فيها، أنني شاعر حزن وحب وحلم بامتياز.

*** ديوانك "أنت" الذي فتحت أوله وسكنت ثانيه وتركت ثالثه للقارئ يتخبط في حل لغزه، هل هو مفتوح أم مكسور. ما السبب في ذلك؟ أهو تمزق أم تردد أم حيرة الأديب يريد أن ينقلها للقارئ؟**

كذلك "عالم لست فيه" وفي سؤالك يكمن الكثير من مكامن الجواب، إنها لغة الشعر المؤولة، فضاءاتها المُعبّرة، ليحمل الحرف كما العبارة دلائل الأسئلة ويجوب فيها غير هيّاب ولا واجف، ليعيد للحرف معناه المنطلق في التعبير عبر أبعاد الزمن الثلاث، ماضيه، وحاضره، ومستقبله، أنت لا تستطيع ان تروّض حتى ذاتك في أطر من القناعات والمفاهيم،

وحتى المذاهب، أنت وليد الآخر ولظى المفهوم الجمعي، وكبد الرؤى المتلاقحة في زمن تماهت فيه الأحاسيس والمشاعر والأهداف، وتصاهرت كلها معاً في آلية الإبداع، والنظر اليه، والمرتجى منه، والمؤمل الذي منه ينشد، فالمرجعية لم تعد ذاتيه بقدر ما أصبحت إنسانية، وهذا ما نشهده على مستوى نظريات النقد والإبداع، أليس كذلك؟!

*** أنت تكتب "النثيرة" ألأن جواد الشعر الموزون جموح أم هناك هاجس في النفس يدفع نحو النثيرة التي لم تدمغ شهادة ميلادها بعد؟ ما هو هذا الهاجس؟ وما شروط النثيرة لتستوي قصيدة في نظر من يدعي أنها شعراً؟**

افهم سؤالك – وأنت أستاذ مادة الأدب الحديث وإيقاع الشعر العربي – لكن في البدء دعني أقول غاية في التوصيف لا أكثر، إنني أعلنت عن نفسي من خلال مجموعاتي الشعرية الأولى "مملكة للجنون والشعر" و "مسرّات حجرية" و "حبر العتمة" أنني شاعر قصيدة نثر، ثم كان ديواني الرابع "مزامير الريح" والسادس "عالم لست فيه" خالصين على قرى قصيدة الإيقاع (التفعيلة)، ثم أصبحت أمزج في مجموعاتي المتتالية ما بين اللونين من خلال لوحات أو في ذات اللوحة معاً، بمعنى تماهى الشكل عندي لصالح الشعرية كمعيار وأساس، بمعنى لم يعد مهماً لبوس الشكل عندي، بالقدر الذي يعنيني كفاعلية شعرية.

أما القول "هاجس في النفس يدفع نحو النثيرة"، فالحق أن الأمر كذلك، كما هو الشأن تماما في أي آلية أو فاعلية إبداعية على الاّ يهن ذلك من التأكيد المطلق، وأؤكد المطلق، ان هاجس النفس نحو الكتابة لا يحدده قرار مسبق بالمفهوم الإداري للقرار لصوغ الشكل سلفاً، الذي به يتأتى المنتج الإبداعي.

أما لجهة قولك "النثيرة التي لم تدمغ شهادة ميلادها بعد" ففي القول إشكالية وربما لن نأوي معاً إلى ركن شديد بشأنها، وأعذرُ لك ذلك فأنت أستاذ إيقاع الشعر العربي، من الطبيعي أن تكون مأخوذ في مرجعيته وتشكّل وجدانك فيه، ولكن الأمر عندي، أنه من نافلة العبث المحاججة بمشروعية قصيدة النثر وقد أصبحت واقعاً معاشا وممارسا في المشهد الإبداعي العربي عامة، وبعيداً عن كلمة "النثر" التي تمهر "بقصيدة النثر" فان في النفس حاجات لا مجال في هذه المقابلة لتبيانها، أو قل أنه بحاجة ربما لمقابلة خاصة لبحث هذه الإشكالية، أتمنى ان تتاح لي فتكون خدمة للقصيدة والإبداع.

إن الهاجس وراء القصيدة، أي قصيدة، هو هيج الشعور للقول، فلا بد للمصدور ان ينفث، أما أن ترى النثيرة قصيدة أم لا فهذا ملك لك وما تشاء، والأمر عندي أنها فضاء من فضاءات الإبداع لا أكثر، أرى نفسي فيه جنبا الى جنب مع أي فضاء آخر، ولذا رأيتني لا آلى أي اعتبار لكتابة كلا اللونين معاً في اليوم الواحد، ونشرهما معاً في ذات الصحيفة أو المجلة أو اللوحة او الديوان، فالهاجس اذا هاجس الشعور في التعبير، بعيداً عن الشكل الذي فيه يكون، فالشعرية هي الأساس والجوهر.

أما شروط النثيرة لتستوي قصيدة ففي ذلك مجال للنقاد و الدارسين، وفي نظري–ولأكن من المُدعين أنها شعراً – الإيقاع الذي يستمد من القصيدة كل قصيدة في حد ذاتها، فوزن الشعر في الأساس والجوهر الإيقاع، ذلك الأثير الدائب في جسد القصيدة وروحها، والذي لا يحقق لها ذلك الوزن الشعري بمعناه الشكلي، وهذا مختصر في القول، وعندي من الإسهاب فيض، إن كان له مجال.

*** أنت شاعر ومحام في نفس الوقت، اليس هذا تناقض؟ ألا تتعرض لصراع داخلي بين العاطفي والمادي؟**

نعم بالفم الملآن أقول إن هناك تناقض، والمبدأ أن الشاعر لا بدَّ ان يُعطي ذاته كلها للشعر، أما لجهة التخصيص إنني محام وأتعرض لصراع داخلي ما بين العاطفي والمادي، فبهذا أيضا يقترب من الصحة أكثر مما يبتعد عنها، ولعله التربة الخصبة أن أقف من خلاله على منابع الإبداع الباعثة للقول، منابع الظلم والقهر واهتزاز القيم من جانب، وعبء المسؤولية والأمانة من جانب آخر، بمعنى أن أجندة المحامي محكمة المواعيد الملزمة، وهذا بحد ذاته يتناقض مع طقوسية الشعر والشاعر ذي المزاج الذي لا يتوافق وهذه التقاسيم المُحكمة ثم أن المحاماة تستدعي استحضار العقل والنظرة الثاقبة والبداهة دائما، وهذا خلاف ما يقتضيه الشعر والشاعر الذي هو هيامات بعيدة عن الحواجز والقيود واعتبار الشكل.. الخ، لكنها لقمة العيش في وطن لا يلي أي اعتبارات لخصوصية الإبداع والمبدع، وتبقى أمنيات تقترب من الترف الفكري والتنظيري، أن ينظر إلى الشاعر نظرة احترام واعتبار يخلد من خلالها إلى عالمه، عالمه الذي هو ضمير الأمة والوطن في آمالهم وآلامهم، لرصد الدقائق والتفاصيل والحالات في لغة هي الإيقاع الحيّ لحقيقة الوجود والحياة.

*** مخاض القصيدة يستعجله الشاعر، ومخاض قضية اجرامية يستبطها المحامي، وتدوم سنين،أتفهمني؟**

نعم القصيدة لا تدعك، لا تمهلك، مخاضها يستبدُّ بك، وعليك، كأن الريح تحتك ، ولا تعترف بالذرائع والمهل ، إن لم تلبي داعيها تدعك، وإلى غير رجعة ، فهاتف القصيدة لا يعود مرة أخرى لذات القصيدة، حتى وإن سُوّل الأمر ذلك فأضغاث أحلام، ثمة خصومه مستبدة ما بين هذا الهاتف والذاكرة، فتصور كيف يكون الأمر وأنت قاضٍ أومحامٍ مثلاً، سيما – وهذا هو الحق – في وسط بعيدٍ عن جو الشعر والإبداع، ففي هذا الجو المعيار مادي، تغيب العاطفة في كبده، لذا أنا أشعر بالغربة التي تمزق نياط القلب، غربة "عالم لست فيه"، بعيداً عني في همي، بعيداً عني في حلمي، بعيداً عني حدّ معناي فيه لزوم مالا يلزم، أو قل عبث محض خارج السرب.

أتمنى لو يقيض لي العيش الكريم بأقل القليل، فأخلد إلى إبداعي وشعري بعيداً عن أي ارتباط آخر، ولكن هيهات .... هيهات.

*** هل يستطيع "نادر" الشاعر أن يقول إن كانت أعماله الشعرية تعكس أو تردد انفعالاته؟**

إن شعري هو ترجمة حرفية لإنفعالاتي، وسيرة ذاتية لحالاتي ودقائقي وتفاصيلي، إن حياتي بكل ما يتشكل وتشكل فيها منثورة في قصائدي منجمة، حتى إذا ما لملمتها وجدتني فيها، ثمة انصهار واحتواء ما بيني وشعري، تلاحم وتلاشٍ وعناق، وما لم يكن الشعر كذلك وصاحبه، فانه لا يرقى لمعناه المقدس للنور والنار الكامن فيه، إن شعري هو شهادة ميلادي وبطاقة أحوالي الشخصية، وجواز سفري وإرثي وتراثي وقيمي ومفاهيمي وحلمي، إن الملأة الروحية هي ثمالة الشعر وإلاه الخواء والجفاف والعبث، وأعتقد أن الشاعر ما لم يكن في اشتباك دائم مع قصيدته فانه يجدف في غير سرب ويخادع نفسه قبل أن يخدع الآخر، فالشاعر أما أن يكون مكانه تاريخ الأدب او الأدب ذاته، والبون ما بين الإثنين واسع.

*** من تكون "هدى" وهدى تنثر اللحظات غابة لبلاد الجداول، هذه التي أحرقتك ووزعت رمادك على المحيطات والفيافي.**

اسألوا "حفناوي بعلي" عني فهو أدري بشعري مني، ولا ضير من سؤال الأستاذين يوسف بكّار ومحمد خرماش وغيرهما الكثير الكثير، فمنهما وقفت موقفَ التلميذ من الأستاذ لأعرف من هدى، ما السائل يا أخي عبد الرحمن بأشد لوعه من المسؤول لمعرفة هدى من تكون، قالوا... وقالوا... فعرفت شيئا وغابت عني أشياء، والقاطرة تسير. لعلك تظنني أمارس ترفاً في مثل هذا القول؟ لا، لقد سُئلت مرات ومرات في مثل هذا المقام مثل هذا السؤال، فوالله ما عندي أكثر مما قالوا عن هدى، ولو أجبت لاجتررت أقوالا ليست لي، وليس عصيّا للمستزيد والمَعنى من كثير الدراسات عبر المشهد الإبداعي العربي عن هدى، عندكم في الجزائر مثلا اضافة للأستاذ الدكتور حفناوي بعلي الذي أعدّ كتابا عن تجربتي الشعرية، ويشرف على رسالة جامعية عن تجربتي الشعرية، هناك الدكتور عمّار ساسي، ونعمان بوقوره وعمّار بوساحه، ومحمد الكراكبي، وذيب قدير، وحسن الكاتب، وغيرهما الكثير ممن أدلى بدلوه في تجربتي الشعرية بصورة أو بأخرى.. وقد وقفوا عند هدى فقوّلوها واوّلوها، وفي الامر متعة الإبداع، ولوعة المبدع.

أراك تستزيد، نعم، هدى الماء أن أضمأ، الآه أن أصرخ، الفرح، النشيد ، هدى ثيمة تتشكل في كل نوازعي النفسية والكيميائية طبيعية طيِّعة، هدى معنى سيميائي عبر بعدي الزمان والمكان، وحقيقة الواقع الذي أعيش، هدى هي هدى.

*** ما سبب تمركز الأنثى في قصائدك بدءا من الاسم "هدى"، أهو الجوع الجسدي أم العطش الجنسي؟**

الأنثى صنو الوجود ومعناه ومبتغاه، وللشاعر هي الروح الملهمة والباعثة، هدى في شعري ليست محض إمراءة من روح وجسد، إنها قيمة وثيمة بالمعنى الذي اسلفت، ولم تكن محظ جسد لأرواء الجوع الجسدي أو العطش الجنسي، ولم يكن الباعث لها كذلك، ولم تكن في حياتي امرأة اسمها هدى لينطلق اسمي بها حباً لها، هذه بديهية مفهومة لدى قارئي شعري ودارسيه، لكنها ملكة شعرية أخذت لبوس كل قيمة في هذا الوجود، ودهشة المرأة التي أريد، والتي أراها في "أروى" الأسم الذي يحمل ديواني العاشر الذي سيصدر بعد أيام من صوغ هذه المقابلة، ففيه تصبح "هدى" "أروى" زوجتي الفاضلة، لماذا؟ وكيف؟ لأن المعنى يخلد في المُثل ومنظومة القيم والمرتكزات التي أطمئن إليها في أن هدى عندما تأخذ لبوس المراة لا يكون لها ان تكون إلا الراعية والرائية والسؤال الخصب للمرأة الفضل والفضيلة، فالمرأة عندي ما كانت، ولم، ولن تكن جوع جسدٍ أو عطش جنس في حدِّ ذاته ، إلا في حدود الطبيعة الفسيولوجية التي أتوحد بها مع الآخر، ولكن كشاعر لم تكن إلا مثالاً للعطاء والبناء ، هنا مثار الدهشة يكمن للمرأة عندي، وإليك قصيدة، "أريدها" في ديواني "أنت"، كمثال لعل فيه شفاء الإجابة والإبانة والوضوح.

أريدها
تملأ الرّحب، تؤثث الرّوح
وعاءً يلمُّ شتات المنافي
مرآةً تسكنني
طفلةً، وعرافةً، ورسولةً، أريدها

وأريدها

جلاء المعاني/التأول والمآل
أنا البحر وكنُّ الضفاف

أريدها
تحلُّ فتحتويني
تنسجُني إذ أنسجها مناسكَ الصمت
والسؤال
فتنبض إذ قلبيَ فيها المناشدَ والهيام

أريدها
معبّرة باسفار حلم يتناهى منازلها
وأنّى الجهات توزعني
لمحيّاها ألم الدروب
أسلمُ وجهي إليها
ملتمساً نِعم الخصب
وطيبَ السهوب

أريدها
ما أن ينوء بالوقد
والتوق الكلام
حبيبتي
سدرة العلم والحكم
ماء الحياة، وزهد المقام

*** قاموسك اللغوي ومعجمك الدلالي مرتبط بالطبيعة أهو الوحشة والعطش لها أم الحنين إلى الطفولة هو الذي يحولك الى رجل رومانسي يبحث عن البحر والماء واقتناص لحظة الشروق وتوديع شعاع الغروب؟**

نعم، الطبيعة الوعاء المؤثث لكينونني فأنا أبن ريف وقرية حيث طفولتي ومسكني الآن – كفر يوبا في الشمال الأردنيَ – ثم انني فلاح بالطبيعة أبدأ يومي بصلاة الفجر وباحتواء الطبيعة وباستلهامها، أعتني بذاتي في بستاني وحدائق منزلي حيث نتماهى ونتصاهر معاً، بيننا لغة مشتركة، وعندما أغيب عن بيتي ليوم واحد أشعر أنني لا أقوى على الغياب أكثر، لأن الأشجار تحنُّ إليّ كما أحنُّ لها، وتقول لي: لا تغب ، ولأن الأزهار والورود في منزلي تنتظرني لأسقيها صباح مساء، ولأني لا أستطيع أن أكون بعيداً عن عطر التراب عندما أروّيه بالماء واروِّضه لنعد الحكايا معاً، حكايا الصمت والرؤيا، لي طقوسي مع شرفات منزلي ، طقوس محكمة، حيث تختلط رواح الزعتر بالنعناع بالياسمين والريحان ، والأشجار بمئات العصافير المغردة التي أصحو على صوتها، ونصلي الفجر معاً، أنا إنسان ملتزم عميق الإيمان بديني كمعنى حضاري وإنساني، ولديّ نزوع دائم نحو الطفولة وطقوسها، أنا طفل دائم، أتماهي مع أطفالي كواحد منهم، ولدي مع أطفال حارتي ألفة وحكايات ورهانات، يستغربها البعض، أعرف ذلك وأفهمه انطلاقاً من طبيعة المفاهيم الشكلية، فأنا محام تفرض علي التقاليد المهنية الجديّة والصرامة، وكذلك يتوقع مني الآخر، ولذا يؤلمني كثيراً كشاعر هذا القيد، وكأني أمارس منكراً أو عليّ أن أمارسه بعيداً عن أعين الآخرين، إنني رومانسي في مبدأي ومذهبي وممارستي، أبحث عن كل ما يوشّي بداهة التفاصيل الصغيرة بالأثير والوَجْد وأشياء الطبيعة وحلاوة الروح، وهذا خياري الذي أنحاز إليه، ولو بشيء من الحيطة والحذر .

*** الطبيعة تقودنا إلى المدينة، فأنت الطفل الذي لونته المرايا بنفايات المدينة، فكم من مدينة رسمت على قلبك البلايا، وكم من مدينة أوجعتك وساقتك إلى الأحزان بتناقضاتها وتلوثها ولمعانها؟**

نعم هذا السؤال مصاغ من قصيدة" التلة الخضراء ابداً" في ديواني الأول " مملكة الجنون والسفر" وهو تعبير عن أول التحام لي مع المدينة في أواخر سنة 1979م حيث أقمت في دمشق وكانت في وضع سياسي مريب لا يسرُّ صديقاً ولا يغيض عدواً، ثم بيروت مدينة الحرب والأشباح والملك المستباح، وقد خرجت تواً من عفاف القرية وطهرها، من الحقل والبيدر والحلم الذي ينمو مع حبات التراب وأعين الماء وسهل "برد الماء" والينابيع المروّاة، خرجت وقد رعّيتُ قطعان الضأن والماعز، ونقلت الماء من البرك العتيقة على الدواب لريّ المزروعات، خرجت من جو أمي التي تنقل الماء من

البئر على رأسها لكافة حوائج الحياة، من عالم أفران الطابون وبيوت الحجر والطين، والرضى بالقليل من كل هذا خرجت إلى المدينة، وأي مدينة؟ لأصطدم مع واقع لا آلفه... واقع غريب موحش، لا تواصل معه، ولا التقاء في لغة مشتركة، فساقني الحزن إلى أنهار من الحزن، واستبدّ بي عطش الروح والوحشة، وتفجّر كل ذلك حنيناً إلى الينابيع الأولى، ينابيع الطفولة والقرية بعفافها وبتولها الثرّ، فكانت قصيدتي رومانسية بغربة الحزن وألق الروح التواقة إلى معينها وبيئتها، ولذا كانت قصائدي كما قرئت إلياذة في الهجر والحزن والحنين.

وكانت المدينة ولم تزل مدعاة وحشة بالنسبة لي، لم آلفها ولم أستطع التواصل معها، أو الاقامة فيها، حتى في ضرورة السفر والحاجات.

*** سؤال الفواجع! الفاجعة الاولى موت الأب والفاجعة الثانية موت الأم والثالثة فاجعة الوطن العربي الإسلامي الممزق! وهل يعني أن فواجع الوالدين تساوي فواجع الوطن؟ ام ان فاجعة الوطن تكبر بكبر الهم فتنسى الذات وتغوص في النَحْنُ؟**

لقد كان موت والدي وهو في خمسينيات عمره دون سابق إنذار فاجعة لي بكل ما تحمله الكلمة من معنى، فاجعة فجّرت كوامن الإبداع فيّ على ما هو في لوحة "كأنه هو" من ديوان "كذلك"، وكانت اولى لحظات الإشتباك مع الموت الذي أصبحت قريبا منه أعايشه في كل لحظة ولم أستطع ولن.. أخرج من مأساوية هذه الفاجعة، فوالدي أخي وصديقي، وكان فقيدة لناسه ومجتمعه كوجيه إجتماعي، بدأ والدي حياته العملية في السفارة الاردنية في بيروت، وانتهى به الأمر إلى السجن تحت وطأة مرحلة سياسية لا ترحم، وقضى ربيع العمر وخريفه في خدمة مجتمعه الى أن توفاه الله حيث أورثني هذا العبء الذي أحمله الآن، وفي ديوان "نار القِرى" الذي سيصدر ربما مطلع السنة المقبلة 2007 ما يشير إلى ذلك، وهذا العبء إضافة لعبء المحام ولعالم الشاعر، عليك أن تدرك ماهية، لتخلص إلى تمازج الأدوار المتباينة والمتباعدة التي أعنى بها وتشكل قيداً على حرية التمرد في روح الشاعر.

كانت فاجعة موت والدي مدعاة لأنثر نزف القلب في كل الإتجاهات أفقا وعمقا، حالات وتفاصيل، رؤى وأسئلة ذائبة لا تهدأ في معنى الحياة والوجود، معنى يضع كل شيء أمام استحقاقه وفلسفته ومنطقه، ونحن أمة تدفن موتاها في صدورها، يكبر الأوفياء فيها بموتاهم ويخلدون في الحياة أحياء... أحياء يرزقون بحكمهم وعلمهم وسوابق كياستهم وقياسات أحكامهم لكل زمان ومكان، من هذا وبهذا الطراز كان والدي مليئا بالحكم والحلم والعلم، مرجعية في علوِّ شأنه، سيداً في قدره.. ترك فراغا لم يُملأ وداهمني عبء موروث لم أكن وإياه على موعد، وأنا أدرج للتو خطى سنيّ الثلاثين..، كان للأم فضل الإسناد فيه رعاية واحتواء وملاءة، بيد أن فقد الوالد لم يمهلها سوى سنة من بعده لتكون وإياه على موعد، فواجهت عبء مجتمع في ملك يراه فيّ، وعنه لا أريم، طائعاً صاغراً، فعمق الإيمان فيّ يجعل ذلك احتسابا لوجهه الكريم.

أما موت والدتي – المرأة الحديدية الجبارة – فقد فجّر فيّ ديوانا شعريا "سأعد أيامي بموتك" أوقفته في جلّه، لوحته الاولى لروحها، مدوّنا في ذلك تاريخ إمراة، وقد كتبت اليها بعد سبع سنوات من وفاتها، كانت كافية للإجابة على السؤال: ايُّ أم فقدت؟! بعد أن تبدّت لي قامة تصغر دونها القامات، قامة الهمتني المبادئ والقيم في كيف أكون رجلاً ذات وأمة ووطن، انها "هدى" وقد يصدق القول أن مرثاتها قصيدة حب لهدى، أليست هدى قيمة كل أصيل وجوهر؟ إن فقدان الأم والأب بمعنى من تماهي الشعور هو التصاق بوجع الأمة والوطن ليخلص إلى ما يمكن اختصاره بأنه مرثاه تتعدد وتتباين فصولها بتعدد المواجع والفواجع على امتداد رقعة عالمنا الاسلامي.

إن الحزن هو الحزن، والفاجعة هي الفاجعة، وكل يستولد الآخر ويستنهضه ليبعث ديمومة الروح فيه قصيدة لا تهدأ، لا تريح ولا تستريح، فالذات هي الذات في فاجعة الألم ولغته، وأمام تماهي الأبعاد في ذلك يصبح الحزن وليداً، عليك الإعتناء به وتربيه ليبقى المرآة العاكسة لحقيقة روحك، في ذاتك وذات الآخر أمام حقيقة واقع مؤلم، وتراث تجتره فلا يغيث ولا يجيب وهل أنت الا ابن واقعك؟!

*** ان الزمان جزيرة جابها الجدب، فغدت اسطورة من خراب! الهذا الحد؟**

نعم، أحيانا الزمن يفقد معناه، يصبح جزيرة جدباء، أسطورة من خراب أمام فقد من تحب، وما تحب، أمام تحدي المشاعر وجرح الشعور، أمام الهوان الذي ترى امتك ووطنك فيه، أمام اللامنطق واللامعقول، لقتل إسرائيلي مثلا في عملية إستشهادية دفاعا عن شرف الأمة والوطن إزاء مغتصب جاء من شتات الارض ليستحل ارضك تقوم الدنيا ولا تقعد، ويستنفر مجلس الأمن، ويغدو ساسة الدنيا لا شغل لهم ولا شاغل الا تداعيات مع حدث، في حين يقتل العشرات والمئات من ابناء شعبك وتهدم البيوت فوق رؤسهم، ويحاربون في لقمة قوتهم، وتشاد جدران الفصل العنصري لتقطّع أوصالهم، وكلُّ ذلك لا يحرك ساكناً، لا بل أن مجرد دفاعك عن نفسك وحقك يعدُّ جريمة أو تجاوزاً، حزب الله، لمجرد أنه خطف جنديين إسرائيلين مغتصبين في عملية عسكرية بحتة، غاية لمبادلتهم بأسراه المناضلين الذين يرزخون منذ عشرات السنين في سجون الإحتلال، تقوم الدنيا شرقا وغرباً ولا تقعد، ويستباح وطناً، فيقتل شعبه، وتدمر البيوت على رؤوس ساكنيها،

وتدمر بنية الوطن التحتية بكافة مرافقها الحياتية والسيادية، ولا يحرك ذلك ساكناً إلا غاية لخدمة اسرائيل وتصبح اسرائيل، بكل ذلك مدافعة عن النفس أمام (منظمة إرهابية) لا تدان حتى لمجرد الإدانة، وتدعى أمريكا على لسان رئيسها الذي يدعى أنه يمثل العالم الحر، إن المسلمين (إرهابيين وفاشست)، بمعنى أن المقاومة، الجدار الأخير في الشرف العربي الذي يمثل وجدانه وضميره هي كذلك بعرف أمريكا ممثلة العالم الحر وحامية حماه، وبهذه الصفة مطلوب من الأنظمة العربية إدانة المقاومة اللبنانية والإنصياع لذلك، وأعتبار أن ما قامت وتقوم به الدولة المغتصبة عمل مشروع للدفاع عن النفس، غاية لتصفية المقاومة، ونزع سلاحها، وفي حين تعلن فنزويلا على لسان رئيسها طرد السفير الإسرائيلي وقطع علاقاتها مع هذا الكيان الغاصب، تمنع مجرد التظاهرات السلمية على امتداد الوطن العربي للتعبير عن مشاعر الشعوب في نصرة المقاومة المسلمة والتضامن مع لبنان الجريح، ويعطي العالم ومجلس الأمن العاجز إسرائيل شهراً كاملاً في استباحة لبنان – ليتمكن من اتخاذ قرار مهزوز لا يُغني ولا يسمن من جوع (بدأ العدوان على لبنان في 2006/7/12 وأتخذ قرار مجلس الأمن 1701 في 2006/8/12)، كل هذا ومثله يفقدك توازنك، ويشعرك بعدم حركيه الزمن ومعنى وجودك.

الإحباط الذي نعيشه نتيجة اختلال التوازن في العدالة الإجتماعية في أوطان لا تحمل من مؤسسات الوطن إلا الشكل، والقوانين التي لا تحمل من روح الشرائع إلا الإسم، أكل القوي الضعيف، والإستحواذ بمنجزات الوطن لفئة دون أخرى، إختلال التوازن وجيوب الفقر، إستهلاك المنتج الذي تلفظه لك نفايات الدول الأخرى، هذا إن استطعت بضيق ذات اليد الحصول عليه، الفقراء، الجياع، العراة، بيوتهم التي تأويهم بالعشرات من الصفيح والزينكو، القناعة بالقليل، والرضى بالضيم والجور صبراً واحتساماً على أمل لا يجئ.. كل ذلك يشعرني بلا معنى الوجود وبعدم حركية الزمن.

الحقوق الشخصية المدَّعاة والمسماة في الدساتير المعطلة، خلاصة صراع البشرية عبر نضالها الطويل، إنعدام الحقوق والحريات في وطن ليس فيه أدنى اعتبار لإنسانية الانسان، حقك في التظاهر لمجرد التعبير عن وجودك في معناك أمام أمتك ووطنك، أمام النوازل التي تحل وتفتك بك، كلُّ هذا ومثله، يشعرك بعدمية حركة الزمن، ولا معنى الوجود فيه، يجعلك أمام شعور أنك محظ مومياء، رسالتك أن تكون صمٌ وبكمٌ وعميٌّ، لتبقى بعيدا عن دوائر التعقيب والأمن.. لتبقى في خانة المواطن الصالح.

إن الزمن مادة وحركة في آن، الزمن جينة حية من جينات الكائنات، لصيق في كل تفاصيل الحياة، وليس ذلك الطيف الهلامي الذي ينشد في التعابير وقصائد الشعراء، أنه نَفَسك الذي يُعبّر عن وجودك، حلمك، وأمانيك وآلامك، الزمن كائن حيّ تماما، ما لم تكن فيه ويكون فيك خلاصة وآية في التفاعل والحراك، فيعني أنك خارجه، أنه خارجك، انكما معاً ليس من أهل الحياة.

*** لماذا يضيق بك الزمان والمكان ألأن أوكسجين الحياة قد تكهرب؟**

كما أسلفت يضيق الزمان، أما المكان فشأن آخر، في البدء دعني أقول أن تماهي الزمان بالمكان هو تماما كتماهي الروح بالجسد، لصيقان لا معنى لواحد منهما دون الآخر، فعندما يضيق الزمان ينعدم المكان، ولا مكان دون حيوية الزمن وصخبه، أي الروح.

علاقتي بالمكان علاقة ألفة وحميميه، تسكنني الأماكن ولا تفارقني، تكبر في وجدي وتتأثث بخصب ذاكرتي، وعندما أعود إليها أعانقها، وأذرف الدموع وأقول: آه، يا إلهي كم كبرت، أسقط حركية الزمن لأعيشها باللحظة التي كنتها فيها لأول مرة، تماماً كقصيدتي التي أعود اليها فأعيش الزمان زمانها والمكان مكانها، وهذا معنىً من ديمومة الطفولة وتخصيب الذاكرة بالنسبة لي، لي مع المكان حكايات ومواقف وفيوضات من الإشارات، لغة نلتقي بها ونتآلف من خلالها ثم أن المكان هو معدن الحنين ومعين الألفة والصمت، المكان يعني أنني أخلد للصمت والسؤال، لغربة الذات، وتدابر الحاجات وللمكان قصائد وروايات وحكايات، لا ينفصم عراها ولا يفرق ما بيني وبينها إلا الموت.

*** من يبعث الهدأة في روح عاصفة نازفة حائرة؟ ومن يروضها؟**

إن اردت الجواب بكلمة "هدى"، وأن أسهب، فالمعنى الذي تبعثه هدى في الجمال والأمن والحرية والسلام، هذي هي المعاني التي تروّض روح الشاعر بقناعة وامتلاء، مهما وطّنت النفس، ومهما تأوّلت الحقائق، وأحكمت الخطب الصماء، وبيانات الثقة الحدباء، فلا شيء يروّضني، ولا حوار عندي لشأن يروضني، أنا ابن قضية، أنا ابن قرية يحمل كل شارع فيها اسماً لشهيد، ابن قرية ولدت فيها على وقع القصف والمقاومة، القصف للزرع والضرع، والمقاومة من أجل إبقاء جذوة الحياة طيبة طاهرة معطاء، ثم أنا ابن أمة توطّنت طائعة صاغرة على ذل المغتصب وهوانه، ولا معقول عالم لا يرى إلا ما يرى مغتصبي، ولا همَّ عنده الا ما يليق به ويجمّله، وتسائل من يروضني؟ وحده فقط الموت الشريف دون مبادئي وقيمي ما يروضني، لأبعث صرخة في ضمير الوجود والحياة والأبد.

***ما سبب حيرتك؟**

حيرتي؟! وسادتي أن آوي إلى فراشي لأنام، حيرتي؟! السؤال الصعب الذي يبدأ معي، وأحاول أن أتصالح معه في رياضتي الأثيرة حيث أمتزج بندى الصباحات لأحاول ترويض الجسد قليلا بعد عمل وتعامل مع الأرض، مع حديقة

بيتي وأشجارها وعشبها وزهرها، محاولة للإطمئنان انني بعد لم أزل على قيد الحياة، مع هذه العائلة الأثيرة على قلبي، مع هذا الأوكسجين الذي أراه سبب وجودي، شعوري إن هذه الأشجار تفتقدني وتنتظرني، وأن هذه الأزهار تضمأ لي وتسأل عني، وتهبني أسباب الحياة، وأن هذا العشب الذي أمارس وإياه لعبة (القط والفأر)، أن أشعر انني قضيت عليه، فاذا به محتال شريف يعود ليشاغلني، وهذا سرٌّ من اسرار الحياة، أراه سببا لتبدّد حيرتي أو مداواتها أو مراودتها عن نفسها، أنا حائر وأحيانا لا أدري لماذا، إنها الأسئلة الجوهرية في الذات "والنحن"، واحيانا أشعر أن حيرتي قيمة أثيرية لا بد منها ذلك أنها فاعلية الحركة والبحث والتجدد، وربما العطاء.

*** أتذكر كم جمعت من تبر المنافي؟**

نعم، جمعت إحدى عشر كوكباً حتى الآن، جمعت من "هدى" الكثير الكثير، ومنها خمسة أزهار هما ما في العمر من معنى، محمد وقاسم من الابناء، وآلاء ورؤى وبهيه من البنات، هم تبر الروح والعمر، وهم ألق الخصب وعرائش الندى، وجمعت من تبر المنافي إرث والدي "القيم لا تتجزأ" "الحرّ يضمأ لا يراق "أقبض على الجرح، قل: أثبت أحد" وجمعت من تبر المنافي هذا الباب المشرع قبلة للسائلين عن العذب من ظلماء المرارات، في أن أطرى فيقال أنني رجل فاضل، في كبد قناعة قد لا أجد فيها قوت يومي، أن أضاحك ضيفي ويخصب عندي والمحل جديب، عتبة هذا البيت تتبئك بقامات الأمة وحكاياهم، وتنبئك بظلم ذوي القربى وغربة الوطن...

*** يا أيها الموعد لا تجئ وإن جئت لا تنتهي؟ أهو قمة العشق؟**

نعم، والعشق غربة ولوعة وخصب وامتلاء، والعشق كل جميل منتظر، كل حلم وغاية وارتواء، كل قيمة مشكلة بتسامي الوجود والحياة، والعشق معنى أن تكون في عالم أنت فيه او هو فيك صنوان، في أبد يتناسل ويتنامى، ويقل: لك حي على الصلاة.

*** أللملح ظمأ؟**

إنها لغة الشعر وهياماته، الرؤيا في ما وراء القول، سِبر العمق والبعد، وتأويل الاشياء بالاشياء، تأويل الحس بالحدس، التنبؤ بالغيب من ستر رقيق، حين تأخذ الكلمات في صوغ الشعر سبائكها الذهبية، معقرة بتبر الوَجْد والحيرة والأسئلة المشرعة في هيام الروح والذكرى وحلم الآت، يصبح للملح ظمأ، هكذا نقول في الشعر ما لا تدركه الوقائع والحقائق، حين يكون خيط الروح مستلا من مفازات المجاهل ومدارج الاحلام، نقول بالشعر ما لا يقال، ونُقوّله لنتفيأ ضلال الروح فنولد ونتجدد ونتحدّث أحياء ننبض كي نقنع أنفسنا على الأقل، إن الحياة جميلة.

*** من يؤنس بئرك العميقة في المفازات؟**

القصيدة على مستوى الشعر، والحلم على مستوى الروح، والإيمان كإنسان مسلم، ثم "هداي" انتظار الوعد والرؤيا، لأشكل الحياة وفق ما أشتهي وأريد، أملاً في الخلاص من كل المآثم التي تؤرّق إنسانية الإنسان في صفائها، وجوهر قيمها، وعمق أسئلتها.

يؤنس بئري العميقة في المفازات، الشعور بأنني لست وحدي، إنني روح الجماعة في البحث لكل ما من شأنه الإرتقاء بتثمير وتعمير مُثل الانسان، وبهاء الوطن وعزة الامة.

يؤنس بئري العميقة في المفازات ألا يضام الحرُّ في وطن "مناجمة الصدق في القول والإخلاص في العمل"، وألا يضيق الوطن فيصبح سجنا، وألا تثكل الأم، وألا يقطع الشجر، وألا بفزع الضرع، ويؤنس بئري العميقة في المفازات عمقها في أن تكون جلاء الحقيقة ووضوح الحق والعدل والانصاف، الشمعة أن تضيء لتقهر الظلام، الأحرار من يبذلون دمائهم رخيصة لرخاء الامة وسعادة الأوطان، القصيدة ان تبيح بسرّها، أن تتصادى مع الحلم والهمّ فتفجره منازل للإرتقاء والإخاء والوفاء، ويؤنس بئري العميقة في المفازات ألا تموت كلماتي وهي دموع عينيّ ودمي من أجل صوغ الجميل والأجمل.

*** ما سبب غربتك؟**

الظلم والضيم والجوع، الوطن المُغلب والمسوّر والشريد، خيام النازحين ومخيمات اللاجئين، فلسطين المليئة بحكايا جدي، أمين القوافل وحادي ركبها في بدايات القرن العشرين حين كان شرق الأردن بئراً للحبوب المصدر عن طريق حيفا ويافا وعكا، وقد أصبحت مغتصبة، ليس لي إلا النظر لمرابعها من أعالي الهضاب، فأنهد للأهل والرحم والجار، وغربة الأوطان، هل يستطيع أن يتصور إنسان – أأؤكد انسانا – ولو من العالم الحر، أن وطنه حرام عليه، وأنه مدفون في صدره يدفئه ويحرقه في آن، وإلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً؟!

ان للغربة معان ومفاهيم مشغولة بالشعور، والشعور عوالم متصارعه، وديناميكية متفاعلة، وأساطيل من أعماق مالا يقال، والحقيقة تكمن فيما لا يقال.

*** متى تفتح مغاليق غربتك؟**

وهل ثمة ما يجعلني معني بذلك؟! إن غربتي هي ذاتي وجواي وتكويني المُشرّب بتأملاتي في حقيقة الوجود ومعنى الخلود، انني أعيش في غربة أشعر معها أنني لا أستطيع ان أتفاهم مع الآخر في قيمه ومفاهيمه، مع من تكون الحياة بالنسبة اليه محض قيمة "مادية" او "لهاث على ذمة الكلب"، بعيداً عن كل ما هو روحي وجمالي وإنساني، إن الشعور بالغربة والتعايش معها حالة تستبدّ بي أحيانا، لأختلي مع ذاتي، مصحوبا بسجائري وقهوتي، إن هذا بالنسبة لي عمل، وعمل شاق لا احتمل من يفسد إهابة عليّ بيد أني أفتح مغاليق غربتي لتتمجد إنسانية الإنسان في وطن حرّ كريم، يهون أمامه أن يدنّسه باغ أو لئيم: النفس والمال والولد.

*** حينما يشتد الوجع يبيع الصمت الحكمة، أ قد أينع الصمت والوجد، ولما تزل هاتفا بالصمت.. أصمت؟**

لا، الصمت وليد الحكمة، وكل منهما يثري الآخر، والصمت هو اللغة الأسمى، كل اللغات في لغة مليئة بالدلائل والإشارات، تجيد قرائتها المنظومة الإنسانية بلسان واحد، وشعور واحد، وبيان واحد، ومشروع واحد، الصمت أحياناً أبلغ من الكلام ، وقد يكون صراخاً بالقدر الذي يكون فيه تعبيراً عن الدّعة والخلود.

أنا معنّى بتأثيث الصمت وتشكيله لأخلق منه ذاتي، وأجدِّدها سبيلا لإثراء الآخر، والتماهي معه في الحوار والأسئلة، سبيلا لتعزيز مرتكزات الجمال في عالم لم يعد يحتمل كل هذي المجاهل من الحروب والأوبئة، والشركات القابضة، والأنظمة الفاسدة، وقصائد الشعر العقيمة.

*** " التناص " في كتاباتك متعدد ومتلون ألا تخاف من استعماله بكثرة في أن يشوش على القارئ ، ويغدو بذلك وسيلة عقيمة ؟**

من خلال أسئلتك الكريمة أرى باطمئنان أنك قارئ وهاضم لتجربتي الشعرية وأن أسئلتك مستلة بعمق من مضانها ، وسؤالك وأنت الأكاديمي الباحث يشير إلى نقد مبطن ، وكأنك تأخذ عليّ بطريقة أو بأخرى معالجتي للتناص .

أن التناص ، هذا المصطلح الذي عرفناه منذ مدة لا تزيد على خمسة عشر عاماً والذي يعود ل " جوليا كرستيفا " الحق في اجتراحه ومنحه مدلولاً وميدان تطبيق ، على سند من القول أنه " تقاطع عبارات مأخوذة من نصوص أخرى ، وأن كل نص هو تشرّب وتحويل لنص آخر ، لا على أساس التبادل الحاصل بين نصوص أدبية مختلفة بل حتى على التبادل بين أنواع مختلفة : الكتابة ، الموسيقى ، الحرف ، الرسم ، الصورة ، الإيماءة ... الخ ومن ثم دراسات الشكلاني الروسي " باختين " وتوسعه في مفهوم التناص وميدان عمله ، ليشمل ميادين الإبداع كافة ، إضافة إلى ميادين أخرى كالصحافة والدعاية والإعلان بحيث لم يعد مصطلح التناص المنبثق أصلاً عن التضمين محصوراً بمعناه ، بل دخل عليه الكثير من التحويل ، ليصبح ميداناً للدراسة مع "حيرار جيبت " الذي درس جميع ظواهر تداخل النصوص الشرعي منها والفاعل

(التضمين ، التلميح ، المحاكاة ، الإنتحال) بحثاً عن دلالة الخطاب / الكلام وأهميته ، إضافة الى كثير الدراسات التي جعلت من مصطلح التناص معطىً تداولياً اممياً في النقد المعاصر .

والخلاصة إن الدراسة التناصية تهدف بالنتيجة إلى التحويل والهضم لتشرّب النصوص غاية لتلاقحها سبيلاً للإثراء والتخصيب ، وإنعاش الذاكرة كوعاء جامع للاغتراف منها ، وقد كان لنظرية التناص بالغ الأثر في أدبنا العربي والتي كانت من الجمود حدَّ التعسف واختصار التلاقح بالسرقة والريبة والمضنّة ، فحركها ليعطيها المرونة والمواكبة وليجعل أثرها بالغاً في تشرب النص العربي الحديث وإخصابه في سعة من الحرية النفسية والمادية ، وأن كان ذلك لا يتجلى إلا من خلال الضوابط التي تنصرف إلى احترام الذات والآخر على حدّ سواء ، والحق أن كافة المصطلحات بتسمياتها الغربية ، التناص ، الإنزياح ، السيمياء ، لم تهبط علينا من السماء . فلسنا خاليي الوفاض مما يعادلها أو يقاربها في مسيرة أدبنا العربي ، الأمر الذي يستنهض الدراسات المقارنة على مستوى المصطلح والمفهوم ، إنطلاقاً من الثقة بالذات ، وإيمانا بتفاعل المفاهيم ، التفاعل الذي يثري بمفهوم الكيمياء والجمال ، وسبّر الغور لتجلي الخطاب الإبداعي ، ضمن الضوابط الحامية والناضمة للصوت الباعث ، وصداه المُحاكى والرائي الذي يحدد جوهر التناص الإبداعي ، الذي هو بالنتيجة فضاء من الأسئلة اللامتناهية . وجوهرها المرجعي في الحس والهدف ، في الغواية والدلالة .

إن الغرب أبانوا المصطلح ، وأضاءوه ، وجلوه ، فبدأ أمراً واقعاً حياً ، وأقول بل لقوا قلوباً خاوية فتمكنوا ، وهذه هي علتنا التي لا يذهب التقويم فيها عن عدم الثقة بالنفس، وعدم التبحر والتبصر في كنه التراث ومضانه ، والذي من شأنه أن يتعانق مع معطيات الوجود ، ومفاهيم الحياة .

إنني أرى أن ما يتأتى من الغرب من نظريات شكلانية ، متشابهة في محاكـاة مـصطلحاتها ، لـه مـا يعادلـه موضوعياً في تراثنا . وهو في الجدية العلمية أعمق وأشمل ، وفي التقعيد والتحديث والتوصيف أكثر ملاءة وامتلاء وجلاء وإبانة . لذا فان التدبر انطلاقاً من فهم الذات في حوار الآخر ، ضرورة لازمة ولازبة لنصل إلى أن ما جاء به التنـاص مثلاً لم يضف على ما لدينا شيئاً ، فبضاعتنا ردّت إلينا . لكن للأسف طبيعة العقل لدينا تذهب إلى أن المصطلح الغربي هو الأكثر مواكبة وحضارة ومصطلحنا عفا عليه الزمن . وليس له من الألق والرنّة ما للمصطلح الغربي من صدى ، وهـذه هي طبيعة المغلوب من الغالب .

أن النقد والناقد المُغَرّب بمفاهيمه بين ظهرانينا ، كان له اليد الطولى في تلويث النص العربي وافراغه من ماءه ومضمونه ليلهث وراء شكلانيات النقد والتجريب الغربي . فإذا به " كالمنبّت ، لا أرضاً قطع ، ولا ظهراً أبقـى " ومـا مئات المصنفات التي تقذف بها المطابع العربية – تحت مسميات الإبداع – إلا دليلاً على ذلك بتعميتها وغرائبيتها ولهاثهـا وراء كل بريق مجلوب مصطنع . ومما يزيد الأمر بلّة أنك تقف أمام مثل هذه المصنفات وقد قطفت الجوائز (الإبداعية) من كل حدب وصوب ، لتقف أمام سؤال كبير . كيف يكون ذلك ؟ وهي الغريبة اليد والوجه واللسان عن ذائقة لغتها وأهلها ، والسؤال : هل أنا معنيّ بفحص دمي لأتأكد من عروبتي وذائقتي وحسي وهدفي وذاكرتي المشتركة ؟ هـل أنـا معنـيّ بفحص مقدرات الذكاء لدي كلما وقع بين يدي عمل (إبداعي) شعري كان أم سردي أم نقدي ، يُعْجَمُ الكلام فكأنه سرياني بحرف عربيّ !.

إن الوقوف أمام الذات أسمى تجليات الإنسانية والفضيلة ، للالتصاق بالجذور واستلهام فرادتهـا وتميزهـا ، أن التلاقح ما بين الأفكار والسلوكيات والمفاهيم أمر لازم وحدٌ ضروري ، استجابة لحقائق الواقع في عالم تماهت وإنداحت فيه الحواجز والجغرافيا ، لكن ذلك لا يعني إعدام الشخصية وذوبانها في الآخر . إن تعدد الشخصيات الحـضارية وثقافاتهـا عوامل إثراء وقوة ومنعة . والحوار في ذلك آية في البناء والتأسيس .

لا بد من إعمال الفكر العربي ، بوضعه أمام حقائق التاريخ والواقع ، من خلال الجسور واسـتنهاض المقـدرات بجرعات الثقة بالنفس المنبعثة من عمق الإيمان بحقيقة وَجْدِنا الثابت كرقم في هذا العالم ، الذي لا مكان فيه لمستسلم . لقد فاتتنا قاطرة الثورة الصناعية ، والتكنولوجية ، وتوشك أن تفوتنا كثير من قاطرات التقدم والحضارة ، ونحن محايـدون ، عالم لا مكان فيه للضعفاء ، عالم إن لم تبحث عن دورك فيه فلن تجد من يبحث عن دور لك فيـه ، إن هـذه التحـديات تستدعي استجابات للبحث عن منطلقات تؤسس للإنطلاق ، أفما آن للفارس أن يترجل ؟!

من مجمل ذلك ، اخلص إلى إنني أعي تماماً حقيقة التناص أمام شخصيتي بملاءة تراثها ، وعلى هـذا الأسـاس أتعامل معه بثقة ، إيمانا من أنه بالنسبة للشاعر ضرورة كالماء والكلاء والنار ، سبيلاً لأثراء النص وتشرّيبه وتخصيبه .

*** عندما يعجز الشعر عن طرح رؤاه وتعجز اللغة عن الإفصاح والإبانة ، ترى نفس الشاعر تصّاعد نحو الهاويـة والإنزلاق أم نحو الفلسفة والتأويل ؟**

إن هذا السؤال قائم على الإفتراض ، إفتراض العجز بداءة ، عجز الشعر عن طرح رؤاه ، وعجز اللغـة عـن الإفصاح ، وعندي أن الشعر يستدعيني ولا أستدعيه ، فألبي داعية، وجواي يحترق ، فلا يخلص هذا الإحتراق إلا إلـى جوهر الشعر الخالد في الفلسفة والتأمل كضرورة إبداعية أمام واقع معاش ، والعملية الإبداعية هي حلقات متعانقة ، تبـدأ بما هو مادي مُعاين ، وتخلص الى ما هو نفسي غير مُعاين ، مشرَّع على القول المؤول المتجذر والمتجدد وفـق أصـداء النفس وطبيعتها . ذلك أن النص الحيّ لا بد أن يكون مليئاً بالمضامين الإنسانية ليكتسب مقومات خلوده ، حيث بذلك يتوحد النص مع كافة اللغات والثقافات والتجليات.

*** إن انزياحاتك المقلقة تثير حرقة السؤال فأنت القائل : لهذا أصبحت تبحث عن زمان آخر / عن مكان / عـن فلـسفة أسمعها أفعى ، في جيبك الخفي ، ألا تعرف كنهها ؟ ألان الأفعى هي حواء ؟**

الشعر في الأصل انزياح وهذا ما يميز لغة الشعر عن لغة النثر ، الإنزياح ليس قصراً على اللغة بحـد ذاتهـا ، لتحقيق غايتها في الشعرية ، بل في التوليفات التي تبدعها الذات الشاعرة وتخلد في النفس ، ولذا فأن لغة الشعر لا تخضع دائماً وبالضرورة لمستساغ العقل والمنطق . وعليه يمكن محاججتها على سندٍ من هذا المُقتضى ، فغموضها البلّوري هـو عمقها ، حرقة الأسئلة المُعَبِّرة عن جوهر الشعر والشعرية ، الشعر أسئلة دائبة في العمق والبحث والتأويـل . جماليتـه تكمن في غموضه الأثيري – لا تعميته – المحفز والمستنهض لتأويل كلام أن قلته في رثاء أمٍّ قُرأ على أنه قـصيدة حـب وأن قلته في استحضار شخصية تراثية قرأ على أساس أنه ملحمة من العشق ، إن عمق الفلسفة في الشعر مبعث جـوهره في التنامي والتلاقح والإنصهار على مستوى الروح . حدّ العمق الذي تخبئه عبارتك هذه المستلّة من قـصيدة "عـذابات

الكفري" في ديوان "مسرّات حجرية " ولو عدت لتاريخ كتابتها –وتاريخ القصيدة مهم عندي واعتبره مكملاً لهما – لوجدت أنه في تموز /1984 آن إقامتي في بيروت ، وفي محطة " لائحة " من ذات القصيدة ، لوجدت أنه جواباً شافياً على سؤالك السالف عن سبب غربتي . أخلص من ذلك أن الأفعى هنا قد أكون – مع التشديد على " قد" – عنيت فيها الحرب الأهلية ذي الطلقات الطائشة التي لا تجعلك في مأمن أنَّى كنت في البيت ، في الشارع ، في الجامعة ... لتعتقد أنت أنني عنيت بها " حواء " وهذا حق مشروع لك ، كما هو حقٌ مشروع للآخر ، وهنا تكمن جوهرية الشعرية في الفلسفة والتأويل ، وفي الإنزياحات القلقة المقلقة في آن ، التي تومئُ " بحرقة الأسئلة عن حقيقة الوجود والمصير " .

*** عاش أبو ذر الغفار رضى الله عنه ضميرا حيا يواجه الفساد واقفاً في وجه الطغاة يؤنب ضمائرهم ويذكرهم بغدهم وبقبرهم ، واتخذه الاشتراكيون والشيوعيون رمزاً من رموز الثورة على الفساد ، والحقيقة أن أبي ذر ليس بثائر ولا باشتراكي ولا بشيوعي وأنما هو رجل مؤمن حق الإيمان ، تحقق فيه معجزة من معجزات الرسول " صلى الله عليه وسلم " إذ يسير وحده ويموت وحده ويبعث وحده . وهو من غفر الله له كما ورد في الأثر . فمن هو أبو ذر الذي تَرفع له المذكرات القانونية / الشعرية ، الشعرية / القانونية ؟**

نعم ، أبو ذر رجل مؤمن حق الإيمان ، وكفى ، أليس الإيمان في شرعنا المُحكم ثورة دائمة لجلاء النفس مما يدنِّسها ، وجلاء الوجود مما يحيق به من أوبئة واوصاب والآلم وصولاً لسعادة الإنسان / النفس التي حرم الله قتلها إلا بالحق ؟! وهل قتل النفس هو محض عمل مادي وحسب ؟ أليس الظلم والجور وحرمان النفس قتلاً ، أليس انعدام الحرية والأمن الإجتماعي قتلاً للنفس بالمعنى المادي ، ثم أن مبادئ الإشتراكية والشيوعية في كافة مفاهيمها الإجتماعية هي سبيلاً لسعادة الإنسان واحترام حقه المصان، وهل هذا الجوهر يحيد عن مبادئ الإسلام ؟ النظرية الاقتصادية في الإسلام ، هل تجاوزتها أيدلوجيه موضوعه حتى الآن ؟ مفهوم الحريات الشخصية هل تجاوزتها أيدلوجية أو نظم أو شرائع حتى الآن ؟ أليس الإعلان العالمي لحقوق الإنسان المقر من قبل هيئة الأمم المتحدة لسنة 1947كأحد مواثيقها هو اختصار لصرخة عمر الفاروق " متى استبعدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً " ، هل لك بمن يدلُّني على كافة الشرائع والمواثيق الدولية بدءاً من معاهدة فينا 1815 في العلاقات الدولية وحتى آخر معاهدة موضوعة ، تجاوزت روح وجوهر ما جاء به الإسلام صراحة ، وما أُكسي باجتهاد وفقه تحت مسمى " السِّير " أي القانون الدولي والعلاقات الدولية بالمفهوم المعاصر ، هل لك أن تُعلمُني بمن يخالفني أن قلت إن الإسلام أعطى المرأة ذمة مالية مستقلة ، إن هذا الحق لم يتأتى لها إلا في سنة 1947 في بريطانيا وعنها أُخِذَ هذا الحق وشرِّع في كافة الدساتير والقوانين العالمية ، هل لك أن تعلم أن أمريكا التي تحاول أن تُشرّع لنا تخاريصها في الديمقراطية وفقاً للبوسها المهين الذي يجعل منا بشراً غير مؤهلين قد سبقها الحاكم العربي الأول إذ قال " وليِّت عليكم ولست بأفضلكم ، فان رأيتموني على حق فأعينوني ، وان رأيتموني على باطل فقوموني ، أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، القوى فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه ، والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ الحق له ... " هذا ليس كلام إنشاء ولا متدارك ، لكنه منهج حق وصدق وعدل ، هجره أهله أمام خواء النفس واستمراء الذل والإستسلام للأخر ، والكلام يطول... ، لأخلص للقول أليس هذا النهج هو معين إيمان أبي ذر ؟ وهل بعد ذلك ثورة وثوريه ؟ بهذا تسلح أبو ذر مؤمناً ثائراً صابراً ، وناجزاً من حاد عن سبيل حوار الحق والسيف ، فكان ضمير الأمة الحرَّ ضد الفساد والمفسدين ، ضد من أغوتهم ماديات هذه الدنيا الفانية فستمرأوا رذيلتهم على فضيلة المسلك اللازم المؤمن الحق نحو الدار الباقية ، وقف أبو ذر مدافعاً ومنافحاً عن قيم الإسلام السمحة غير هيّاب ولا وجل فكان رمزاً إنسانيا يستصرخ في كل زمان ومكان من خلال شخصيته الحية والحيوية المليئة بالثراء ، فتحققت به معجزة الرسول صلى الله عليه وسلم استلهاماً للجوء إليه كقناع في وجه البغي المتجذر والمتجدد في كل زمان ومكان ، إنه صراع الفضيلة مع الرذيلة ،

أيتها الفضيلة في برجها العاجي
الرذيلة تملأ الشوارع

*** أبو ذر تحدى معاوية وأنت من تتحدى ؟**

أنا أتحدى كل باغٍ وأمارٍ بالسوء للنيل من حق الآخر دون وجه حق ، أبو ذر تحدى معاوية كرمز للسلطة وأنا كشاعر عربي أتحدى اثنين وعشرين حاكماً عربياً ، وأتحدى في دولة المؤسسات والقانون الشكلية المدعاة المئات من المسؤولين وصناع القرار ، أتحدى الفساد والمفسدين والمحسوبية والشللية ، من تستأثر بمكتسبات التنمية والوطن لحسابها الخاص على حساب أصحاب الحق والحقوق ، أتحدى الفقر والبطالة المدبَّرة وغير المبررَّة في كل (تكيّة) عربية جعلت منا شعوباً قانطة منكفئة مقتول روح المبادرة والإبداع فيها ، جعلت منا تربة خصبة للإرهاب والعنف ، إن الإنسان عندما يشعر بالظلم يكفر بكل القيم والمرتكزات ، يكفر حتى – استغفر الله العظيم – بخالقه ، (وجرائر) ذلك في عنق الحاكم والمسؤول ، إن الإنبتّات الذي نشهده ما بين الأنظمة وشعوبها لدليل على خوائها وانعدام مشروعيتها في البقاء لحظة واحد، فليعطى الأمر لأهله صدقاً وحقاً ، وما نشهده من وقائع على مستوى الوطن والامة ممثلاً بالحرب التي يخوضها فصيل عربي مع دولة إسرائيل المغتصبة – التي لا تقهر – لخير دليل على ما أقول، لقد عرت هذه الحرب الأنظمة وعرت

أمريكيا التي تفهم الحقوق والحريات وفق مفاهيم رعاة البقر ، أليس من حقي كمواطن عربي أن أعبر عن مشاعري ؟ – مجرد التعبير – إزاء ما يحيق بأمتي ووطني من مؤامرات تحيكها أمريكا وربيبتها إسرائيل أي مواطن عربي من المحيط إلى الخليج يتمتع بهذا الحق ؟ ، لماذا ؟ لأنه خلافاً لحرية أمريكا وديمقراطيتها التي تريد ، إن واقع النظام العربي بشكله وتشكيله الراهن في امتحان وهو مهدد بالإنهيار ولن تسعفه أمريكا ، وهذا أمر من شاه إيران غير بعيد ، إن مشروعية البقاء لأي نظام هو الحوار لا القوة ، التصالح مع الشعب بحيث يكون النظام في حد ذاته مكتسباً وطنياً ، فتدبروا يا أولي الألباب.

*** يقول الدكتور خرماش في تقديمه لأشعارك " إن قصيدتك قد نجحت إلى حد كبير في عرض قضية الشعب العربي المتهالك تحت سياط الجوع والظلم والعذاب ، إلا انه اخذ عنك أو عن قصيدتك أنه تنتظر الفارس المغوار الذي سيأتي من الخارج ليملأ الأرض عدلاً . ترى لماذا ؟ ألان أرض الفوارس من زمن عنترة إلى زمن حسن نصر الله قد عقمت عن الإنجاب أم إن العرب قد تخنثوا ولم يعد فيهم رجل يشفي الغليل ، ويفصِدْ – أي يحجم بالجزائرية – على القلب ؟**

إن رأي الدكتور خرماش رأي إشكالي خالف من كتب عن هذا الديوان " مزامير الريح " قبله ، ولم يصادقه من كتب عنه بعده ، أمثال الأستاذ الدكتور موسى الربابعة ، وحفناوي بعلي وهما دراستان محكمتان مستجدتان – أي في غضون سنة من الآن ، وعلى أية حال فيبقى رأي الدكتور خرماش محط احترامي وهو منارة بها أقتدي وأهتدي وله الفضل في قراءة تجربتي الشعرية في مجمل محطاتها ، بيد لا بدّ من القول : كيف يكون لي أن انتظر الفارس المغوار الذي سيأتي من الخارج ، وأنا أمام أبي ذر وأمام سياط الجوع والقهر والعذاب ، فما هي الحجَّة التي استند إليها أستاذي خرماش ؟ إن الفارس المغوار الذي انتظر هو ذات الشعب ، في أمة ولادة منذ عنترة حتى نصر الله ، إنني لست ممن يغتال الشخص والتاريخ ويخلد للعدميات ، أنني أرى العظمة متجلية في كل لحظة وحالة من حالات الأمة ، صبر (المعيل) لأسرة ، والتدبر بالكتمان أمرة للسترة صابراً قانعاً ، أليست هذه بطولة ونضال ؟ المواطن الشريف في أي موقع يكون أليس شرفة ونضاله بطولة ، أمام المغريات وضنك الحاجات والفاقة؟ البطولة على مستوى الشخص والأسرة تكون ، كما على مستوى الأمة الوطن تكون ، أن الشعوب الحيّة لم تحقق حريتها واستقلالها إلا وقد نضحت دماً وتصبَّبت عرقاً ، لأن الأوطان لا تبنى بالترف الفكري والتنظير الفلسفي ، وان الشعوب الحية لا تأخذ مكانها منّة من أحد ولا استجداءً بضيق ذات اليد ، هذا عالم لا مكان فيه للضغاء ، ولا مكان فيه لمن ينتظر الآخر ليبحث له عن دور فيه ، أن مُنظومة الحريات وشِرَعِها ودساتيرها لم تصل إليها الشعوب الحية إلا عبر تراكم نضالات مئات السنين ، وان واقعها المعاصر هو خلاصة لمرّ الآمها ، لتجد فيه الشقاء والمعين والناصر أمام مسؤولية التحديات وتداعياتها ، لبناء وطن عصيّ دائم الإستقلال والنماء ، فالإستقلال عملية دائمة مستمرة ، والتنمية آلية حركية عضوية تستدعي الجد والصبرّ ومواكبة العلوم في تقدمها .

*** أنت ترفض الأيديولوجيات السائدة فما هو البديل الذي تقدمه ، أم ترى في " الصعلكة " بالمفهوم الأدبي " حلا للمشكلة ؟**

نعم ، أنا ارفض الأيدلوجيات السائدة بمعنى شكل النظام العربي بالمعنى الشكلي السائد ، فهو كله على حرف واحد بعيداً عن الإدعاءات المكونة لجوهر هذا النظام أو ذاك ، كلها تنهل من معين واحد يصبّ في وأد الشعوب وقهرها لتخلص إلى اثنيات من الفقر والفساد ، والطائفية والعنصرية ، والبديل هو أن تعي الشعوب أن الحرية والكرامة ليست منّة ، ولا تعطى عن طيب خاطر ، وليس الحاكم المسلح الملهم والضرورة ، معنيٌّ بإعطاء هذه الحقوق لأنه في الأصل مأسور ولا يستطيع أن يمنحها ، هذا إن أراد أن يمنحها إذا نحن أمام ، إشكالية متعاضدة محكمة الحلقات ، الإرادة فيها ليست سيدة الموقف والسيادة ، لا بد من الخلود الى الذات أمام الأسئلة الجوهرية في الوجود والحياة ، ماذا نريد ؟ والى أين ؟ يتأتى كل هذا بقناعة جهاد النفس غاية لاحترام آدمية الإنسان ، كإنسان ، والوطن كوعاء حامي وراعي للكل ، وللأمة كمعين متلاقح سبيلاً لإثراء الرؤى والرؤية في كينونة قابلة للحياة في عالم لا يرحم ، عالم إن فاتتك محطة من محطات قاطراته ، ربما لا تستطيع أن تعوضها ، وقد فاتتنا الكثير، أمام هذه الأسئلة يجدر أن نكون أمام استحقاق الكائن والممكن وتداعياته ، والتي لن تكون إلا عسيرة ، "والجميل عسير " حسب المثل الإغريقي الشهير ، ولتكن القناعة ناصعة ، إن تحقيق إنسانية الإنسان يستدعي التضحية والثورة الدائمة ونزف الكثير الكثير من الدماء الطاهرة الزكية ، يقترب هذا من مفهوم "الصعلكة " بالمعنى الأدبي أو لا يقترب لست معنياً بذلك ، ولست ممن يؤمن بمقدسات الوصف والتوصيف ، ما أنا معنيٌّ فيه هو الجوهر الفاعل للتقدم خطوة الى الأمام في مسيرة الألف ميل ، والوقت لا يرحم ، وقد تداركنا ، وأصبحنا منه وعنه في بون ، وإذا بقي الواقع على حاله ، فغير بعيد من زمن أن يصبح الوطن العربي كله بواقعه الحالي دويلات تغرق في الحروب الطائفية والمنافعية ، لتتلاشى بحكم الواقع دولاً مسخاً لصالح عدو الأمة ، وما نُذُر مشروع الأوسط الجديد إلا نذرٌ مما أدلّ ، وأُشير إليه .

*** لا ارث يؤوينا ولا ميراث / وخيلنا بيعت ، وبيعت الأسياف / أترانا قد أنتهينا ولم تبق لنا إلا النخاسة ؟**

*** أنت تكتب لتعلل فتنة الأبعاد والجهات ولتقول للكلمات : انك نبضي ، وأنا على جمر السؤال أحترق ؟ ما سعة هذه الفتنة وما مدى استفزازها ؟**

نحن أمة مكشوفة تماماً ، تخبُّ بها أوطاناً خاوية من أي روح أو جوهر يستطيع أن يلتصق أو يتلاحم أو يعكس أي رؤية ضمن أي مفهوم إنساني لحقيقة الشعوب فيها ، والإرث والميراث ممثلاً بمكنوزة في منأى عنها ، بل موقوف ، والتاريخ كما هو معلوم على مستوى كافة العلوم الاجتماعية والطبيعية ، الذاكرة الجمعية للأمة ، بئر التخصيب والإثراء والقراءة الدائمة للبناء والإنطلاق ، ونحن أمة في واقعها الراهن منبتّة ، " لا أرضاً تقطع ولا ظهر تبقي " ، وهنا مكمن المعضلة المتنامية على كافة المستويات المادية والروحية ، لذا بهذا الواقع كما أسلفت لا نغدو أن نكون إلا بضاعة مزجاة لن تجد لها مكاناً حتى في أسواق النخاسة ، ما هو الدور الذي يقدمه الوطن العربي مجتمعاً على مستوى العلم في منظومة الإنتاج ، على المستوى التقني في عالم يلج القرن الحادي والعشرين نحو علم الجينات وقد طوى صفحة التكنولوجيا بكل ما توصلت إليه من دهشة ؟ لا شيء ، ما هو الدور الذي يقدمه الوطن العربي لحقوق وضمانات المواطن فيه ، وقد طوى العالم الراقي صفحة هذه الحقوق على مستوى الإنسان لينتقل الى حقوق الحيوان ؟ لا شيء . إن ما يشغل برلمانات العالم الراقي الآن مناقشة ووضع تشاريع تصون الحيوان واحترام حقوقه ومشاعره ، عدم جواز ذبح الدجاجة على مرآى من أختها الدجاجة مثلاً ، فدلني على مواطن عربي استطاع أن يُعَبِّرَ عن مشاعره في نصرة حزب الله في حربة الدائرة مع إسرائيل ، هذا الحزب الذي عرى الأنظمة ووضعها أمام استحقاقاتها ، وقد وضعتنا في بئر عميقة مظلمة وأقنعتنا إننا إمام عدوٍ لا يقهر ، ولا سبيل لنا إلا في الهرولة والإستجداء له علّه يقبل فينا على أن نحمي أمنه ، وهو العدو الغاصب ، إن النظام العربي أمام سؤال صعب ، وإن سوّل له كعادته أن سوق الحجج ومبررات الأسباب يكون مقنعاً بعد الآن ، لا بدّ للامة أن تبحث عن عصبها الحيّ ،وتصل إلى قناعة تامة أن هذا العصب يكمن في دينها بعد قراءته القراءة الحضارية الحكيمة المحكمة الحقة ، لبعث غاية احتواء الزمان والمكان فيه عدلاً ومساواة من خلال وسيلتي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

إن هذه هي أسئلة الشعرية القلقة المقلقة ، وأنا أعتبر نفسي الصوت الشعري العربي الأكثر إبانه ووضوح في رصد حقيقة الواقع على مستوى الذات والوطن والامة ، ولا مكان عندي للمسميات المحنطة أمام حركية الواقع وحقيقة استحقاقها ، إن الفتنة والإغواء والغوية بالمفهوم الشعري ، هي بذور كوامن الثورة بمفاهيم العلوم الإجتماعية ، السياسية والإقتصادية منها خاصة ، وعندي أن المعادلة الإقتصادية هي حاضنة المعادلة السياسية ، لأن القوة بالمفهوم السياسي الآن تتجلى بالاقتصاد وصوغ التقنية فيه وصولاً إلى إنتاج يكون ناضماً للأمن والسلم الاجتماعيين ، ففي ظل نسب البطالة المتصاعدة لا أمن ولا سلام ، وهنا مكمن من مكامن الخطأ في النظام العربي الذي يمعن في احتقار ذكاء مواطنيه في مفهوم الأمن والسلام ، جاعلاً من منهما معطىً مادي لا معطى نفسي ، ثم إن القرار السياسي محكوم بالاقتصادي الذي بدوره رسالة جوهرية تصبُّ في اللحمة الاجتماعية المتصاعدة إذ بهذا الثالوث يستكمل بناء الدولة على المستوى الداخلي لتأخذ مكانها على المستوى الدولي .

*** تنزف الكلمات مرا / وفي المرِّ وميض الجمر / في الجمر أسئلة لا تبين .**
هنا يصير المر جمراً ومعاً يساوي حراً ، حر الأسئلة وحرقتها . فما هذه الحرقة ؟

إنها صرخة " نصر بن سيّار " التي لم تجد نفعاً في إمبراطورية كائنة أن تكون ، حيث ذهبت الى غير رجعة في جهالة ظلمها ، وضلالة غيّها ، حين استأثر بالحكم فيها العصبة ، وسلبت من العباد ما أعطاه لها رب العباد ، وهذه صرخة بمفهوم القانون لا تتقادم، إنها دائمة الفعل والتفاعل ، صرخة ضمنتها قصائدي غير مرة ، مشغولة بقصة سيدنا " نوح " عليه السلام ، حيث لا عاصم من الحق إلا الحق ، وخذ من القراءات ما تريد ، انه الشعر المعبأ بالأسئلة حيث أن الحرية لا تولد إلا من المرّ ، تماماً كما الماء يتفجر من أعماق الجبال ، الجبال العالية ، عذباً زلالا ، والأحرار منذرُوُن للدروب الصعبة المسالك الوعرة الأحشاء ، ليأخذوا مكانهم في بناء الحضارة ، وتقرير إنسانية الإنسان ، فيصبحوا مادة الوطن ، ومعين أمنه الذي لا ينضب .

*** إذا كان في المر دواء نافعاً وفي الجمر آخر الدواء الكي ، فمن الكاوي ومن المكتوي ؟**

في الحقيقة نحن الشعب معاً ولعلك تطلب مني تأكيداً وتستزيدني القول ،حسناً ، آخر الدواء الكي ؟ إن الشعوب قد تصبر صاغرة لكنها لا ترحم ، وفي نظام الرئيس صدام حسين خير دليل على ذلك ، لقد أمعن في الظلم حتى جعل من وطنه لقمة مستساغة للأعداء، ولم تسعفه القوة وصناديق الإقتراع المزيفة ، وهذه هي حقيقة ما هو به الآن كاوياً، وما به شعبه مكتوي على ألا يهن ذلك من القول أن صدام ونظامه مثالاً ينطبق بصورة او بأخرى على كافة الأنظمة العربية ، بصورة أو بأخرى .

*** نـــادر ، أنـــت ناديـــت.... أمـــي كيـــف يـــأتلف المختلـــف ، ويختلـــف المؤتلـــف ؟ ، وأنـــا خلـــسة هتفت .. هدى !**

في قصيدتي " سأعد أيامي بموتك " من ذات الديوان الذي يحمل اسمها ، والتي أوقفتها على رثاء أمي ، مـــاذا ترى ؟! ترى أنني برثاء أمي أرثي الواقع العربي ، وهذا هو سرّ القصيدة العربية المعاصرة وآفاق تطورها ، فلم يعـــد الرثاء بمعناه التقليدي ، وهدى التي حضرت في القصيدة كأم ، إحدى أدواء هدى التي تستحضر دائماً في شعريتي كمثـــال لكل جميل ومقدس ومحتفى ، ففي قراءة قد ترى في القصيدة ملحمة في الحب لهدى ، وفي أخرى ملحمة لرصد الواقـــع المرّ المعاش ، ومحاولة إعادة خلقة ليبدو أكثر سعة وروعة وجمالاً ، وفي أخرى قد ترى فيها مسلّة طبوغرافية لرصـــد الواقع المعاش بالمفهوم الاجتماعي ، لتأخذ منها الوثيقة ، وكل هذه القراءات وغيرها جوهر رسالة الشاعر في بعث الوجود لحياة أجمل وإنسان أرقى ، ينعم في مُثُل الجمال غاية للإرتواء والامتلاء . في القصيدة إشارات ودلائل للفساد والمفسدين ، للوطن المهان أمام أعدائه ، وللأمة الماسكة على جمر الرضا ، لا حول لها ولا قوة ، وفي القصيدة شعور ومـــشاعر ، ونحن أمة تدفن موتاها في صدورها ، والحرّ إذا اقتدى بآخر افتداه ، فما بالك بالرحم، سيما إذا كان هذا الرحم أمّاً .

*** بعد بيع " الشوم " و" الهمة " من يحفظ الذمة ؟ هل للشاعر والشعر أن يفعلا ذلك ؟**

الشاعر يدلُّ ويشير ، وهذه رسالته وهذا سلاحه وهذا مبدأ الإيمان فيه ، في أن يكون أمين الأمة فـــي ضـــميرها الوجدي والجمعي ، من خلال وعيه وثقافته وحسِّه لصوغ هذا الضمير ، وبعث الشعور فيه من خلال استـــشعاره ، وكمـــا قلت ستبقى القصيدة ، صاحبة دور فاعل في معركة الإنسان والوطن والأمة للإرتقاء الى ما هو أفـــضل ، والـــسمو بهـــذا الإرتقاء نحو تكريس القيم الجامعة والحامية والراعية في الواقع والحلم ، إن المعركة نحو تكريس منظومة القيم هي معركة السيف والقلم في آن ، وكل من خلال موقعه هو " راع ومسؤول عن رعيته " ، بهذا تستقيم منظومة القـــيم الإنـــسانية ، وتأخذ موقعها في الإنطلاق نحو البناء والتنمية والتثمير ، فالكل عامل ولا مكان لمن يقف على الحياد ، أننا كأمـــة معنيـــة الآن أكثر من أي وقت مضى في استلهام واستنهاض مكنونها الذي ساد حضارة أعطت للبشرية لبنات تقدمها ونهوضـــها ، فالحضارة الغربية مدانة لحضارتنا ، وهذا مالا يختلف عليه اثنان بلغة العلم ، وهذا يعني إن كوامن العظمة موجودة في تاريخ وتراث وواقع هذه الأمة ، ولا بد من تفجير هذه الكوامن لتأخذ مكانها اللائق بين الأمم . أما الإمعان في وأد الـــذات واغتيال شخصيتها ، فهذا لا يفضي إلا الى العدمية والإنكفاء والسبات .

*** من يملأ الكؤوس التي جفَّ خمرها ؟**

يملأها الإيمان بحقيقية إن هذه الأمة ، أمة حيّة ، تحمل في طيات مكامنها عصب الحياة لتكون ، وتأخذ دورها ، إسهاما في بناء الإنسان على سطح هذا الكوكب ، وتعزيز قيم الجمال والسلام فيه ، واثرائها بنبل دينها السمح الحنيف ، الذي لم يتجاوز ما فيه نظام تشريعي موضوع ، أو نظريات مبتدعة ، ولو أنعمـــت النظـــر فـــي خلاصـــة النظريـــات والأيدلوجيات والمنظومات المساغة بتاريخ البشرية ، وعبر صرعها الطويل ، لما رأيت فيها شيئاً يتجاوز الدين الحنيف ، أليس الدين تعزيزاً لمكارم الأخلاق، اللغة المشتركة التي توحد الإنسان أينما كان ، وتستدعيه لاحتضانها وصونها ، وهـــذه حقيقة عيانية واضحة في عصر المواصلات والإتصالات التي توصل إليها العلم الحديث لفك العزلة الحـــضارية وتمـــاهي الكل في بوتقة واحدة ، بوتقة المضامين الإنسانية الجامعة .

*** ما السؤال الذي تود طرحه ، ولم أطرحه ؟**

أسئلتك عميقة واعية ، تدل على اطلاع واسع على تجربتي الشعرية وتغويني في المزيد ، أتمنى أن نلتقـــي بعـــد صدور مجموعاتي " أروى " و " نار القِرى " و" حدائق القلق "فإنهما يشكلان مرحلة مهمة من مراحل تجربتـــي الـــشعرية بجديدهما على صعيد المضمون الشعري والفكري ، ومضمون الرؤيا نحو الحياة والوجود ، فنكون أمام مجـــال للغـــوص أكثر في عمق التجربة آملاً بالتواصل من خلال هذا المنبر الذي شكل ويشكل جسراً حميمياً في مجاله لأمة هي أحوج مـــا تكون للتواصل والحوار.

نادر شكراً لهذا التواصل

شـــكراً جزيلاً ،،،

أجري هذا الحوار بتاريخ 2006/8/10

© مخبر وحدة التكوين و البحث في نظريات القراءة و مناهجها.
جامعة محمد خيذر بسكرة، الجزائر.2009

http://labreception.net